الفنيقيون بين الفرس واليونان*

بقلم الامير موريس حافظ شهاب
امين دار الآثار اللبنانية

مصر وبابل

ان سقطت نينوى في السنة ٦٠٨ ق.م. قُسمت المملكة الاشورية القديمة بين شعبين هما الميديّون والبابليون.

وكان من نصيب سورية وفنيقية ان تتعلقا بمملكة البابليين. الا ان نخاو، الفرعون المصري من الدولة السادسة والعشرين، رأى ان يغتنم تلك الفرصة فيعيد بسط السيادة المصرية على البلاد السورية. ومما دفعه الى ذلك تذكار المصايب التي انزلتها بمصر الغزوة الاشورية، فعزّز فيه النزعة الى الاخذ بتقليد الفراعنة السياسي الا وهو أن يجعل بين مصر والبلاد المجاورة حاجزًا قويًا تقوم به المناطق السورية والفنيقية.

وكان قد تقدم لنخاو علاقات متينة مع الفنيقيين، اذ كلفهم ارتياد شواطئ افريقية. فسار الفنيقيون من البحر الاحمر، وداروا حول افريقية وعادوا ماريّن بمضيق جبل طارق، فالبحر المتوسط. وقد اقاموا ثلاث سنوات في رحلتهم هذه. وقطعوا رأس الرجاء الصالح قبل ڤاسكو دي گاما بعشرين قرناً. ولكن، لسوء الحظ، لم يكن لهذه الرحلة الاستكشافية من نتيجة.

وكان لاحتلال المصريين سورية وفنيقية تأثير مقلق في بلاط ملك بابل. فعقد هذا لابنه نبختنصر المشهور على جيش عظيم وارسله لمهاجمة نخاو. فنشبت معركة بين الجيشين في شمالي سورية قرب كركيش، المدعوّة اليوم جرابلس، على الفرات. فكسر المصريون شرّ كسرة وتراجعوا منخذلين تاركين سورية بين يدي نبختنصر.

---

*) مادة محاضرة من محاضرات «معهد الآداب الشرقية»، في فرع «علم الآثار القديمة».

فتحوّلت اذ ذاك سياسة الفرعون من الغزو الى الدسّ السياسي ، فاعمل على اثارة ملوك فنيقية ويهوذا على الحكم البابلي . وقد نجح في عمله هذا . على ان نجاحه لم يطل . فان نبختنصر لم يكد يرقى عرش بابل حتى اعاد الكرّة فاستعاد فنيقية ، وخلّد ذكر غزوته بنقش تلك الآثار التي لا تزال شاهدة حتى ايامنا في صخور نهر الكلب ، وفي وادي بريصا قرب بحيرة حمص واثر نبختنصر في نهر الكلب هو الصخر المنقوش القائم على مستوى الطريق الحالية .

ثم ان نبختنصر سيّر احد قوّاده على صيدون فاحتلّها ، واقام الحصار على صور فضيّق عليها . وزحف على مملكة يهوذا فاحتلّ اورشليم سنة ٦٠٠ . على ان الاسرائيليين ثاروا على الحكم البابلي ، فدُفع نبختنصر الى اعادة الكرّة مرّتين ، فجلاهم اخيرًا عن اورشليم وحملهم مع ملكهم الى بابل .

الّا ان سلطان بابل لم يدم طويلًا في بلادنا . فقام خليفة الفرعون نخاو ، واسمه أبريس ، بمحاربة البابليين ، ولم يلبث ان ظهر على جيش نبختنصر ، فاحتلّ صيدون وجبيل وسائر المدن الساحلية .

وعليه فاننا نرى فنيقية ، وصيدون خاصّة ، موضوع النزاع الدائم بين المصريين والبابليين في النصف الاول من القرن السادس . فكان اسطولها يقوم تارةً بخدمة الاولين وطورًا بخدمة الآخرين .

ظهور الفرس

على ان المملكة البابلية لم تعش طويلًا بعد موت نبختنصر . فان الفرس زحفوا بقيادة احشورش فاجتاحوا مملكة الميديين ومملكة البابليين واحتلّوا عاصمة هؤلاء سنة ٥٣٨ . فكانت النتيجة ان جميع البلاد الخاضعة لهاتين المملكتين دخلت حتمًا في حكم الفرس . ويذكر هيرودوتس ان الفنيقيين خضعوا للفرس بملء ارادتهم . وقد تجاوزت سلطة ملوك فارس هذه البلاد الى مصر فاحتلّها قمبيز بن احشورش . ثم شاء ان يحارب القرطاجيين ، فامر جيشه البحري بالسير الى قرطاجة . ولكنّ الفنيقيين أبوا القيام بهذا الامر لانهم كانوا متفقين مع القرطاجيين بالأيمان المعظّمة ، فضلًا عن انهم كانوا يتعرّضون لاقتراف الاثم

بمحاربتهم ابناءهم لانّ مؤسس قرطاجة من الفنيقيين. اما وقد رفض الفنيقيون السير لمحاربة قرطاجة فلم يكن بمقدور ما تبقى من الاسطول ان يقوم بهذه الغزوة البحرية ... ولم ير قمبيز من العدل ان يجبر الفنيقيين على ذلك لانهم كانوا قد خضعوا له بمل، ارادتهم ، ولانهم كانوا يكوّنون قوة الجيش البحري بكامله . » (هيرودوتس ٣:١٩) .

هذا ما يفيدنا اياه مؤرخ من اواخر القرن السادس ؛ واذا فانه يكاد يكون معاصراً للحوادث التي يرويها . ومنها نستخلص نتيجتين مهمتين : اولاهما ان الفنيقيين خضعوا للسلطة الفارسية بمل، ارادتهم ، وثانيتهما ان الفنيقيين كانوا يكوّنون قوة الجيش البحري الفارسي بكامله.

وهو معروف ان سلطة البحار في اوائل الالف الاول كانت في ايدي الفنيقيين ، وان اسطولهم كان اغنى اساطيل العالم ، اذ ذاك ، واجراها واعظمها بطشاً .

ثم ان الفرس بتكوينهم بلاداً حسنة التنظيم ، وافرة الازدهار ، ميّالة الى مظاهر الترف وآثار الفنّ ، فتحوا امام حلفائهم الفنيقيين مجالاً واسعاً للتجارة البرّية في الداخلية ؛ كما انهم بدخولهم مصر وآسية الصغرى ، اوجدوا لهم طرقاً جديدة للتجارة البحرية في السواحل .

بين الفرس واليونان

عمل الاسطول الفنيقي

هذا وان يكن من منفعة للفنيقيين في اتحادهم مع الفرس ، فقد كان لهؤلاء ايضاً منفعة في ذلك الاتحاد . كانت بلاد فارس الواسعة بحاجة ماسّة الى اسطول ، ولا سيما انه كان في هذه البلاد مناطق كثيرة يسكنها اليونان، فيقوم يونان البلوبونيز واثينة وما اليها باثارة المشاكل والدسائس السياسية بين اخوانهم في بلاد فارس . واننا نرى اهمية الاسطول الفنيقي عندما يشتعل الخلاف بين الفرس واليونان فتبدأ تلك الحروب المشهورة في التاريخ «بالحروب الميدية» ، عند ذاك يشعر الفرس بفضل الاسطول الفنيقي في مساعدتهم على نقل جيوشهم من منطقة

الى اخرى، وعلى معاونة جيش اليونان البحري.

وقد عرف له هذا الفضل داريوس اذ استعان به في نقل جيوشه الى بلاد اليونان. وذاك ان داريوس بعد ان احرق سارديه في آسية الصغرى اراد الزحف على بلاد اليونان بطريق البرّ، ورأى ان يجتاز البوسفور ويسير حتى اثينة. ولكن الخطّة لم تفده سوى تكثير اعدائه. فان الشعوب التي كان يزعمها في سيره كانت تتألب عليه متفقة مع خصومه الاصليين. فانصرف عن خطّته هذه، ورغب الى الفنيقيين، سنة ٤٩٠، في نقل جيشه الضخم الى بلاد اليونان. ولكنه لم يُفلح هنا ايضاً. لان الجيش الاثيني اظهر، على قلّة عدده، من الشجاعة والمهارة في الاعمال الحربية، ما جعله ينتصر على جيش داريوس الضخم في سهول ماراثون انتصاراً باهراً حتى لم يبقَ للفرس الّا الرجوع، كما اتوا، بطريق البحر.

وكان لأحشورش بن داريوس، ان يأخذ بثأر ابيه فيغسل العار الذي علق بالجيوش الفارسية. فجمع جيشاً جرّاً، واجتاز الهلسبنطس، او الدردنيل، على جسر من السفن، واكتسح تراقية حتى وصل الى مجاز ترموبيل حيث كان ينتظره لاونيداس الاسبرطي في عدد قليل من رجاله. وهنا يزعم المؤرّخون ان احشورش ارسل يقول للاونيداس: «اطرح سلاحك!» فاجابه البطل الاسبرطي: «تقدّم فخذه!»

ثم نشبت المعركة فاظهر لاونيداس ورجاله شجاعة نادرة لم تفدهم الّا الذكرى الحسنة. لان احشورش انتصر عليهم فاجتاز ذاك المضيق الى اثينة فاحرقها. اما اليونان فاجتمعوا للشورى فنصحهم تميستوكل بانشاب معركة في مضيق سلاميوس، بين جزيرة سلاميوس والشاطئ الاثيني. فلم يسمع له بعض القوّاد من اليونان، واحتدم الجدال حتى ان احدهم رفع عصاه على تميستوكل يريد ضربه. عند ذاك اجاب هذا، على زعم المؤرخين، بتلك الكلمة المشهورة: «اضرب، ولكن اسمع!» ثم افاض في البراهين حتى اقنعهم.

وكان احشورش قد عقد مجلس الشورى في معسكره قبل المعركة البحرية. وقد وصف لنا هيرودوتس ذاك المجلس وصفاً يفيدنا من نواحٍ عدة قال (٨: ٦٧): «جلس احشورش على عرشه. وتقدّم المسلطون على الشعوب المختلفة،

وقواد المراكب الذين طلبهم ، فجلسوا كلّ في مركز يوافق الرتبة التي اعطاه اياها. وكان في مقدمتهم ملك صيدون ، يأتي بعده ملك صور ، ثم الباقون . . . فسألهم احشورش ، بواسطة مردونيوس ، هل ينشب المعركة على البحر. فسألهم مردونيوس ذلك ، مبتدئاً بملك صيدون . . . »

نستنتج من هذا القول تأكيد الاولية التي اولاها ملك الفرس ملوك فنيقية . وها ان هيرودوتس يقول مرتين بتقدّم ملك صيدون ، حتى على ملك صور ، في مركزه وصفه في المشورة .

اما معركة سلاميوس فنشبت سنة ٤٨٠. وكانت نتيجتها ان حيلة تميستوكل انتصرت على قوّة احشورش. فخرجت اثينة ظافرة من الحروب الميدية ، فنالت مجداً عظيماً ضمن لها المركز الاول بين المدن اليونانية . فبدأ عصرها الذهبي منذ اوائل القرن الخامس ، بفضل ما تقدّم ، وبفضل تلك الادارة الحاذقة التي قام بها پريكليس ، فاتسعت اساليب الرفاهية ، وازدهرت الفنون والآداب ازدهاراً لا تزال مدينين له حتى اليوم . فقام فيدياس بتزيين البارتنون الذي بناه إكتينوس وكاليكراتس ؛ ولمعت في افق الاداب والتاريخ والفلسفة والعلوم اسماء سوفوكل ، واوريبد ، وارستوفان ، وسقراط ، وهيرودوتس ، وبقراط ، وتوسيديد ، فخلّدت العبقرية اليونانية مدى الاجيال .

التأثير اليوناني في فارس وفنيقية

اننا ، اذا ما ذكرنا الحروب الميدية التي اقامت آسية على اوربة المتمدنة اذ ذاك ، لا نعني ان مملكة الفرس اقفلت مطلقاً بوجه النفوذ اليوناني .

لم يكن بدّ للشعب الفارسي ، وهو حديث عهد بالرقي ، من ان يستمدّ من الشعوب المتمدّنة التي اخضعها او التي كان على اتصال بها ، عناصر ذاك الفنّ الذي دُعي فيما بعد « بالفنّ الفارسي » . وهو فنّ مركّب ، كالفنّ الفنيقي ، امتزجت فيه العناصر المصرية والاشورية واليونانية .

ثم ان هناك ما سهّل دخول النفوذ اليوناني في بلاد فارس ، على رغم

الحروب الميدية . وذلك ان المدن اليونانية لم تكن كلها على اتفاق دائم بعضها مع بعض . بل ان منها ما كان يقوم بالحروب الاهلية فتستنجد بالفرس على اخواتها . وكان من اليونان انفسهم جنود مأجورة في الجيش الفارسي . وكان التجار اليونان يضربون في مناطق مختلفة من المملكة الفارسية . فضلاً عن ان يونان آسية الصغرى ، او اليونيين ، كانوا من رعايا الدولة الفارسية . ثم ان الفنيقيين ، مع انهم كانوا يحاربون في جانب الفرس ، كانوا على اتصال وثيق باليونان .

وكان الفنانون من اليونان يشتغلون في معامل صيدون . فاخذ فنانو فنيقية ينحرفون شيئاً فشيئاً عن المذهب المصري في آثارهم الى المذهب اليوناني . وقد بنى الفنيقيون قصراً على الطراز الفارسي يظهر لنا في تيجان اعمدته ، المحفوظة في متحف بيروت ، شاهد على ما تقدّم . فان التأثير الفارسي بارز في هيئته فتط المثلة ثورين مثصلين بظهريهما . الاّ انه لا يظهر فيها ارتعاش الفنّ الفارسي . فان عضلات الثورين مدروسة بتدقيق وهدوء وتؤدة اقرب الى المذهب اليوناني منها الى مذهب پرسيپوليس ، عاصمة الفرس .

تقرّب صيدون من اليونان

ولم يقتصر التأثير اليوناني في صيدون على المظاهر الفنية . فان المدينة بعد ان ظلّت في القرن الخامس حليفة فارس المخلصة فكانت قاعدة الولاية ، اخذت ، في القرن الرابع ، تنتم الفرس لخلع النير الفارسي . فتقرّبت من اثينة ، منذ اواخر القرن الخامس . ولكن من الحقّ ان نقول ان الفرس انفسهم شجعوا هذا التقرّب باتحادهم مع اثينة على اسبرطة .

وقد عزّز ذاك التقرّب ايضاً في صيدون ملك عشترتون الذي حكم من السنة ٣٧٤ الى ٣٦٢ فلم يدع فرصةً الاّ اظهر فيها ميله الى اليونان حتى لُقّب « فيلهيلين » اي « صديق اليونان » . وكان من اعزّ مقاصده ان يتجاوز في بلاطه مظاهر الترف اليوناني البارزة في بلاطات ملوك قبرص . حتى ان ذكر مآدبه وتصوره واضاحيه ، وحرمه بما فيه من المغنيات اليونية والمحظيات

البلوبونزية ، كان منتشراً في بلاد اليونان من اقصاها الى اقصاها .

وكان من دلائل ميله الى اليونان انه كان عوناً لوفد اثيني ذاهب الى بلاد فارس ، حتى اتمّ مهمته . فعرف له الاثينيون هذا الفضل واصدروا قراراً يشكرونه فيه ، ومنحوا التجار الصيدونيين الذين يتعاملون مع البيره،مرفأ اثينة، امتيازات جمركية .

على ان صداقة هذا الملك لليونانيين جعلت الدولة الفارسية تنظر اليه بعين الغضب ، حتى اتّهمته بموالاة اعدائها ، فسيّرت جيشاً على صيدون لقتله . فخاف كثيراً عند وصول الجيش ، ولم يشأ ان يقع حيًّا في قبضة الفرس ، ولم يجسر على قتل نفسه ، فرجا امرأته فقتلته ثم انتحرت بعده .

امّا اسم عشتروتون فانه ، على رغم مظهره اليوناني ، ساميّ مصحّف اصله «بدعشتَرْت» . وهو اسم نعرفه بفضل رقم مختلفة في قرطاجة وغيرها من المستعمرات الفنيقية . وهو تصغير «عبد عشتَرْت» . ومن هذا النوع في التصغير اسم «حيرام» ملك صور ، وهو تصغير أحيرام .

وفضلاً عن ذلك فقد كشفت الحفريات ايضاً في صيدون ، هيكلاً فنيقياً على ضفة الأوّلي . يشتمل على ساحة واسعة يحدّها جدار في مؤخرها ، وتدعمها عدّة جدران . وقد ظهر في احدها رقم مختلفة افادتنا اسم مرمّم هذا الهيكل فاذا هو ملك من ملوك صيدون يُسمّى بدعشتَرْت حفيد اشمونعَزَر الاول ، وافادتنا ايضاً ان بدعشتَرْت هذا رمّم الهيكل في سبيل الهه أشمون . واذاً فان اسم بدعشتَرْت من الاسماء المألوفة في صيدون .

ويظهر جلياً ان عصر عشتروتون - بدعشتَرْت هذا كان في صيدون عصر مجد ورخاء قلما ادركت مثله . فازداد عدد سكّانها وتجاوز عدد سفنها الحربية المائة . تشهد بذلك نقودها وقد نُقش فيها ، دلالةً على عظمة المدينة وقوّتها البحرية ، رسم سفينة مجهّزة للحرب . وقد أُخذت صورة هذه السفينة فنقشت على قطعة الخمسة القروش من نقدنا اللبناني .

عودة مصر الى البراءة

اما مصر فانها ، على رغم ما وصلت اليه من الانحطاط ، ما زالت تحلم باخذ ثارها ، وبالحصول ، ان لم يكن على سيطرتها السابقة ، فعلى استقلالها وطمأنينتها الداخلية .

فكان ان الفرعون نكتانيبو الاول استدعى اليه شبرياس الاثيني فكلفه ان يعزز كل ما يراه ضعيفاً من مواقع الدلتا ، اي الوجهة البحرية من بلاد مصر .

ثم قام خلفه الفرعون تاخوس بالدس على الفرس لدى ملوك يهودا وملوك فنيقية . فتألفت عصبة ثوار على السلطة الفارسية رئسها تنيس ملك صيدون ، الذي كان الفرس قد اجلسوه على عرش عشترتون سنة ٣٦٢ . وكان في اول امره مخلصاً للدولة المسيطرة الا انه اغتر بازدهار مدينته وقوتها من جهة ، واشمأزت نفسه من هجية عمال الفرس الذين كانوا يهتمون باعداد العدد لمحاربة مصر ، فتحالف سراً والملوك الثائرين من الفرس . ثم عقد ملوك فنيقية كلهم اجتماعاً عاماً في طرابلس عهدوا فيه الى تنيس بادارة الثورة على الغاصين مزايوس وبليزيس . وقد بدأت هذه الثورة سنة ٣٥١ ، وكانت شديدة حرب فيها الفريقان بعنف وثبات . واسفرت المناوشات الاولى عن انتصار الثوار . حتى ان ارتحشستا الثالث أوخوس قلق وخاف نتيجة الثورة ، فقدم بنفسه على رأس جيش ضخم .

ولما شعر تنيس بالفشل القريب ، رأى ان يستعيد ثقة ملك الفرس ، فخان وطنه واسلم الى الملك بعض الوجهاء من صيدون . اما ارتحشستا فظهر ارتياحه بادئ بدء لعمل تنيس حتى اذا مكنته الفرصة ، اكتسح صيدون فاحرقها جيشه بكاملها ، ثم قتل تنيس نحو السنة ٣٥٠ . ولا تزال الآثار الباقية من قصر صيدون الفارسي ، كبعض اقسام القواعد ، وقطع تيجان الاعمدة ، المحفوظة في متحف بيروت ، شاهدة على ما اتاه الهاجمون من اعمال التخريب والتدمير .

وبعد هذه الحوادث بثماني عشرة سنة وصل الاسكندر الكبير ، منتصراً

على داريوس في معركة ايسوس ، فاحتل مختلف الممالك الفنيقية ، واقام الحصار على صور[1]

ملوك صيدون

ان الحفريات التي أجريت في صيدا كشفت لنا عن قبور ملوك صيدون على العهد الفارسي . وكان اهمها ما اكتشف في اياعة قرب صيدا.

اياعة اسم ارض مستطيلة الشكل تقريباً لا تتجاوز مساحتها ٢٥٠ متراً في ١٠٠ متر . وهي تقع اليوم على ١٥٠٠ متر من البحر، غربي الطريق القديمة بين بيروت وصيدا ، عند مفرق طريق جزين . وتبعد عن مدينة صيدا نحو كيلومترين . يعلوها طبقة من التراب الزراعي ضئيلة حتى ان المزروعات لا تعيش فيها الا بصعوبة . وتحت هذه الطبقة طبقة من الصخر ذي اللون المعروف « بالرملي » .

في هذه الأرض اكتشف مدفنان كبيران ، وكان الاكتشاف الاول نتيجة الصدفة كما يأتي :

في ٢ اذار سنة ١٨٨٧ ، اتى صاحب تلك الارض ، محمد شريف افندي ، الى السلطة المحلية مخبراً اكتشاف بئر في ارضه قد يكون في اسفلها بعض القبور . فارسل قائمقام صيدا فاتضح البئر ممتلئاً فيما من التراب والحصى . فظهر ان في البئر ممراً الى سبعة قبور تحتوي كلها على تواويس . وقد كلف هذه الاعمال المرحوم بشارة خوري . فرفع تقريراً مفصلاً الى القسطنطينية . فاهتم السلطان بالامر وارسل الى صيدا لاجراء الحفريات مدير الآثار القديمة نفسه حمدي بك . ووضع تحت تصرفه البحرية « عبر » لنقل ما يكتشفه من التواويس الى القسطنطينية .

وبينما كان حمدي بك يقوم بكل دقة بدرس المدفن الاول والتفتيش فيه ، اكتشف الى قربه مدفناً ثانياً ظهر في ما بعد انه اقدم من المدفن الاول . ولهذا

---

(١) راجع تفصيل ذلك في مشرق هذه السنة ، ص ٢٥-٣٢

فاننا نبدأ بدرسه ، فنكون قد تممنا التسلسل التاريخي :

ان المدفن الثاني محفور كالاول في الصخر الرملي . وهو يتألف من بئر مستطيلة القطع تبلغ احدى جهتيها ٤ امتار والثانية ٣٫٢٠ امتار . ويبلغ عمقها ٧٫٥٠ امتار . وها اننا نرى في صيدون تأثير العادة المصرية في جعل القبور ضمن آبار ، وهي تلك العادة التي نتحقق العمل بها في بيبلوس في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ق.م. وقد ظلّ قياس البئر هو هو تقريباً . وفُتح في جهتيه المتوازيتين مدخلان يقودان الى قبرين . اما القبر الاول ، وهو الآخذ جهة الجنوب ، فلا يدلّ حفره على كبير عناية . وهو مفتوح المدخل على قياس ١٫٩٠ علوًّا في مثله عرضاً . اما مساحة القبر فتبلغ ١٫٢٠ امتار في ٣٫٩٠ امتار . وقد حفر في ارضه قبران متشابهان متعارضان ، ووضع على افخمها بلاطتان وجد تحتها عدد من الآثار الذهبية منها عصابة من ورقة ذهبية مطرّقة ، وعقد ، وعدد من الخرز ، وسواران احدهما مزدان بالحجارة الكريمة ، في وسطه عين هرّ بين زهرتين من البَشنين ، ووجد كذلك عينان رمزيّتان من الذهب والعقيق ، ومرآة من البرونز ، وغير ذلك من الحلى الفضية والبرونزية .

ومجموع هذه الآثار يدلّ على التأثير المصري المميّز البادي بازهار البَشنين والمرآة وغيرها . وكان الميت قد رُبط الى قطعة من الخشب بليت مع عظام الميت كلّها ، فلم يبقَ الّا حلق البرونز الذي استعمل في ربط الميت الى الخشبة المذكورة . وهذا ما قادنا الى القول بوجود هذه العادة المدفنية .

والى جانب القبر هذا وجد قبر آخر على اتصال به . اما مساحة القبر الجديد فلا تتجاوز ٢٫٨٠ . واما ما فيه هو فقبران آخران لم يوجد فيهما الّا بعض العظام .

وقد وجد في البئر اثناء الحفر اسرجة خزفية من الطراز المعروف بالاسرائيلي . اي ان السراج منها يبدو على شكل صحن دون قاعدة ، محنيّ الجوانب الى الداخل .

اما في جهة البئر الشمالية ، اي تجاه القبر الموصوف آنفاً ، فقد ظهر قبر آخر يبلغ علوّ مدخله الذي كان محكم السدّ ٢٫٢٠ في مترين ، وتبلغ

مساحته الداخلية ١٫٦٠ في ٣٫٤٠ ، وعلوّه ٢٫٦٠ وحيطانه مطلية بالكلس .

وجد في هذا القبر اربعة اسرجة خزفية كالمتقدّم ذكرها ، ومبخرجتان من البرونز لكل منها ساق تنتهي بثلاث قوائم ، وقد زيّن اعلاها باشكال الزهور .

وبعد ان نُظّف هذا القبر وُجد انه مُبلّط بست بلاطات لا غير تبلغ الواحدة منها ٢٫٦٠ مترين طولًا ومن ٥٠ الى ٨٠ سنتيمترًا عرضاً . وتحت هذا البلاط قطعة واحدة ضخمة من الحجر تبلغ ٣٫٤٢ امتار في ١٫٧٠ محكمة الوضع ضمن الجدران الاربعة ، وقد ظهرت في اعلاها خطوط بيضوية الشكل كان من شأنها ان تمكّن من استعمال الحبال في تنزيل ذاك الصخر الضخم وتركيزه ضمن جدران البلاط . وعلى كل ذلك دلائل الاتقان في العمل . ولما كُسر هذا الحجر ورُفع من مكانه ، بدا القبر الجديد وعلى مدخله خطّ محفور يقع عليه الحجر الضخم السابق الذكر فيحكم قفل القبر تماماً . اما سعة القبر فتبلغ ٢٫٦٠ طولًا في ١٫٢٠ عرضاً في ١٫٥٠ عمقاً .

ناووس تبنت

وكان في القبر صاحبه نائماً في ناووس من الامفيوليت الاسود ، وقد رُبطت ومياؤه الى خشبة من الجنيز ووصلت الرابط بحلق من الفضة .

ويظهر ان الملك الراقد كان متقدماً في السن بدليل ان شعره الابيض خضب بالحنّاء . وكان على جبهته عصابة بسيطة من الذهب طولها ٢٥ سنتيمترًا وعرضها ٥ سنتيمترات في الوسط و٣ في الطرفين . وهذا كلّ ما اكتشف ضمن الناووس .

ومما يستحق الذكر هيئة الناووس فانه بدا على شكل صندوق المومياء ، مستدير القمة ، عمودي الجانبين ، مخصور الاسفل قليلًا كما لو شاء صانعه ان يجعله يوافق شكل الميت . وعلى اعلى الناووس خطّ حُفر بالهيروغليف يحتوي نصاً مأخوذاً من « كتاب الاموات » .

اما الغطاء فيوافق تحدّبات الناووس نفسه وفي اعلاه رأس كامل النحت بارز على جسد مبسوط لا يبرز منه الّا طرفا القدمين على وسادة مُثلت بقطعة مبسوطة كذلك .

وهذا الرأس يبدو مصريا خالصاً كما يستدل من قسماته كلها . ومن اللحية المستعارة والجنة التي يسقط طرفاها من عن الكتفين حتى الصدر . وقد جعل في عنق الميت وعلى صدره عقد عريض مُثلت فيه انواع مختلفة من الزهور واللآلئ وانتهى برأسي بازيين يقفان به على الكتفين.

وعلى جسم الغطاء نفسه تسعة اعمدة من الهيروغليف يفصل بينها وبين العقد الالهة المصرية نيت مبسوطة الجناحين ، وابناء هوروس الاربعة اثنين في كل جهة .

كل ما في هذا الناووس يدلّ على الاصل المصري : مظهره الجاري المعروف في العصر السيتي ، ومادّته المستخرجة من مقالع الجبانات التي ذاعت شهرتها منذ السنة ٦٠٠ تقريباً على عهد الدولة السادسة والعشرين ، والنصّ الهيروغليفي المستخرج من مجموعة الطقوس المدفنية المصرية المعروفة باسم « كتاب الاموات » ، فضلاً عن اسم صاحب الناووس المدعوّ : بنفتاح رئيس العسكر .

ولكنّ هناك ، لحسن الحظّ ، في اسفل الناووس ، كتابة فنيقية ليس من شك في انها حُفرت بعد عمل الناووس . ويظهر من نصّها ان المدعو في الناووس ليس بنفتاح المصري ، بل الفنيقي تبنيت ملك صيدون . وهو يعدد الادعية على كلّ من يتجاسر ويدخل قبره الا انه لم يتراجع عن دخول قبر غيره ونزع هذا الناووس وتحويله الى ناووس له . ولعله اشتراه ممن سرقه او نقله في غزوة على ارض مصر . وهو يقول في كتابته ان ليس في قبره كنوز لا من الذهب ولا من الفضة ؛ وقد صدق . فان قبره ، على كونه لم يُسرق ، كان خالياً من كلّ أثر للمال . فهو متقن الصنعة ولكنه فقير المظهر ، ولا سيما اذا قسناه بقبور ملوك بيبلوس في القرن التاسع عشر والثامن عشر ق. م. والمعلّ عادة دفن كنوز الملك في قبره كانت قد حالت في عصر تبنيت .

ناووس اشمونعزر

واذا ما ذكرنا ناووس تبنيت ، فلا يمكن ان نضرب صفحاً عن ناووس آخر يشبهه كل الشبه ، وقد وُجد في صيدا كذلك في منتصف القرن الفائت ،

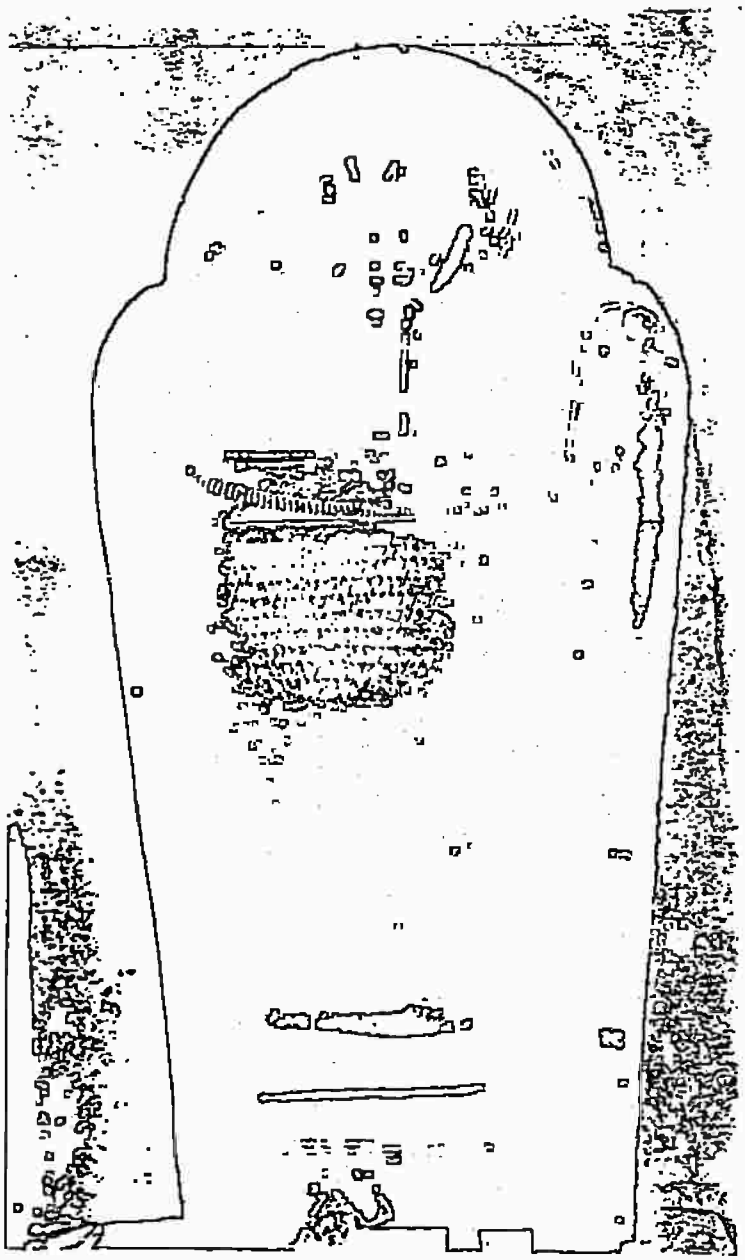

تابوت شوشنعزر

وتظهر به الكتابة الفنيقية

ونال شهرة بعيدة في عالم الآثار القديمة ، الا وهو ناووس ابن تبنيت ، الملك اشمونعزر .

هذا الناووس اكبر من الاول قليلاً ؛ الا انه من المادة نفسها والشكل نفسه . وان اختلف عن ناووس تبنيت فانه يختلف بمظهر غطائه . فقد محا اشمونعزر الكتابة الهيروغليفية المصرية كلها وابدلها بكتابة فنيقية طويلة نورد ترجمتها في ما يلي :

في شهر بول ، في السنة الرابعة عشرة من ملك الملك اشمونعزر ، ملك الصيدونيين ابن الملك تبنيت ، ملك الصيدونيين ، اشمونعزر ، ملك الصيدونيين ، تكلّم قائلاً : « لقد أُخذت قبل الاوان ، وانا ابن ايام قليلة ، يتيم ، ابن ارملة . وها اني استريح في هذا التابوت وفي هذا القبر في المكان الذي بنيته لنفسي . واني اناشد كل امير وكل رجل ألّا يفتحوا هذا المدفن وان لا يفتشوا عن الكنوز ، فليس هنا كنوز ، وان لا يرفعوا التابوت عن مدفني ، وان لا يبنوا فوق هذا المدفن قبواً لمدفن آخر . واذا اشار الناس عليك بذلك فلا تصغ لاقوالهم. فان كلّ امير وكل رجل يفتح قبو هذا المدفن ، او يرفع التابوت من مدفني ، او يبني فوق هذا المدفن، فلا يكن لهم مدفن لدى الرفاييم ، ولا يُدفنوا في قبر ، ولا يكن لهم ابناء ولا ذرّية بعدهم ، ويسلّمهم الآلهة الفنيقيون الى ملك قوي يتسلّط عليهم ، فتُستأصل شأفة اي كان من الملوك او غيرهم من الناس الذين يفتحون قبو هذا المدفن او يأخذون هذا الناووس ، وذرّية هذا الامير او هؤلاء الرجال . فلا يكن لهم جذر من اسفل ، ولا ثمر من اعلى ، ولا شرف بين الاحياء تحت الشمس . لانني انا البريء قد أُخذت من قبل الاوان ، وانا ابن ايام قليلة ، يتيم ، ابن ارملة . لأنني انا اشمونعزر ، ملك الصيدونيين ، ابن الملك تبنيت ، ملك الصيدونيين ، حفيد الملك اشمونعزر ، ملك الصيدونيين ، رامي المشترى كاهنة عشترت سيّدتنا ؛ الملكة ، ابنة الملك اشمونعزر ، ملك الصيدونيين بنينا هياكل الالهة : هيكل عشترت في صيدون ، المدينة البحرية ، واقمنا فيه عشترت باحتفال ؛ ونحن الذين بنينا هيكل اشمون ، والمرج المقدس في يدلل في الجبل ، واقمناه فيه باحتفال ؛ ونحن الذين بنينا هياكل

الآلهة صيدون في صيدون المدينة البحرية : هيكل بعل صيدون ، وهيكل عشترت في بعل. وقد اعطانا ملك الملوك

دور ويرفه ، اراضي الخنطة ، اراض ممتازة في سهل سَمَرون ، وذلك مقابلة للمآثر التي قمت بها ، وقد
زادها الى حدود البلاد لتكون ملك الصيدونيين دائماً . واني اناشد كل امير وكل رجل الّا يفتحوا قبري
والّا يفرغوا قبري ، والّا يبنوا فوق هذا المدفن ، والّا يأخذوا تابوت مدفني ؛ وذلك خوفاً من ان يسلمهم
الآلهة القديسون ، والّا يستأصلوا هؤلاء الامراء وهؤلاء الرجال وذريّاتهم الى الابد .»

عصر هؤلاء الملوك

اننا نعرف بفضل هذه الكتابة لهماء ثلاثة من ملوك صيدون : اشمونعزر الاول ، وتبنيت ، واشمونعزر الثاني . وهناك اسم اميرة تولّت الوصاية ، وهي ملقبة بملكة ، وقد عاشت على الارجح بعد وفاة ابنها اشمونعزر الثاني . هذه الملكة او الوصيّة هي امعشترت ابنة اشمونعزر الاول وامرأة اخيها تبنيت ، اذ هي ام اشمونعزر الثاني ابن تبنيت . ولا غرابة في هذه الطريقة في زواج الاخ باخته فانها كانت جارية اذ ذاك ، ولنا عليها في التاريخ المصري القديم شواهد عدّة .

والكتابة المذكورة تشير الى بناء هيكل للاله اشمون في بدلل . وقد اكتشفت آثار هذا الهيكل قرب الجسر على طريق صيدا القديمة في مكان اسمه « بستان الشيخ » . فاذا هو يشتمل على ساحة فسيحة تتصل بالجبل ، وتقوم من جهة الوادي على جدران قويّة . ويحدّها من جهة الجنوب حائط مرتفع .

وقد رسم الجدار الذي تستند اليه هذه الساحة وتوّاه احد ملوك صيدون المدعو بدعشترت القائل عن نفسه انه حفيد اشمونعزر الاول ؛ كما تفيدنا الرقم المكتشفة على هذا الجدار والمحفوظ بعضها في متحف بيروت . وتفيدنا هذه الرقم ايضاً اسم ولي العهد اذ ذاك وهو يتملك .

واذاً فان لدينا اسرة من ملوك صيدون تتألف من اربعة ملوك ، وملكة ، وولي عهد قد يكون ملك في ما بعد .

الّا اننا لا نعرف شيئاً عن موت الملك اشمونعزر الاول . اما خليفته تبنيت

فقد مات طاعناً في السنّ . فخلفه ابنه اشمونعزر الثاني مدة اربعة عشر عاماً . ثم مات في شبابه فخلفه بدعشترت ، وملك لا اقل من اربعة عشر عاماً ، لأن لدينا رقيماً مؤرّخاً من السنة الرابعة عشرة لملكه . وقد يُنشر قريباً . وعليه فيمكننا ان نجعل لهذه الأسرة نحو نصف قرن من الحكم ، لأن ملكين من افرادها ، احدهما مات في شبابه ، حكما مدة ٢٨ عاماً على الاقل .

بقي علينا ان نفتش عن زمن نضع فيه هذا الحكم ، وهو حكم يدلّ على عهد ازدهار سياسي بما يظهر فيه من البناء واتساع الحدود .

لقد رأى بعض العلماء ان يعيّنوا حكم هذا الاسرة بعد فتوح الاسكندر . على اننا نرى ترك هذه النظرية ، على فضل القائلين بها وشهرتهم وفيهم مثل الاستاذ كليرمون — غانو . وحجتهم ان لقب « سيّد الملوك » : ادون ملكيم الوارد في كتابة اشمونعزر ، لُقّب به بعض ملوك البطالسة . على ان هذا اللقب ليس فيه ما يختصّ بعصر دون غيره . فان « سيّد الملوك » يمكن اطلاقه على كل ملك عظيم يكون تحت حكمه عدة ملوك . ولا يخفى ان ملك الفرس يسمي نفسه « ملك الملوك » وكذلك سلطان الترك حتى العهد المتأخر كما يظهر في نشيد محمد الخامس العثماني .

وفضلاً عن ذلك فليس من المعقول ان مدافن متأخرة عن عصر الاسكندر لا يظهر فيها الطراز اليوناني الذي كان منذ الاثر في صيدون منذ القرن الخامس ، فلا يبدو شيء من ذلك لا في انت المدفن ولا في الطقس المدفني .

ثم ان لدينا اليوم دلائل رقمية تصرفنا عن قبول هذه النظرية . وهي ان خطّ اشمونعزر اقدم من لغة الفنيقية الراقية الى القرن الرابع والموجودة على قطع النقود وعلى ناووس بتنعم المكتشف في بيبلوس .

هذا وان توفيق تبنيت واشمونعزر لا يمكن ان يكونا من القرن الرابع لأننا نعرف اسماء ملوك صيدون منذ السنة ٣٧٢ حتى فتوح الاسكندر .

ولا يمكن كذلك ان يكون من عهد السنة ٣٨٠ ، وهي السنة التي جرت فيها معركة سلاميوس ، لأن ديودوروس المؤرّخ يذكر اسم ملك صيدون الذي حضر المعركة الى جنب احشورش ملك الفرس ، وهو تنامنيستور ابن أنيذوس .

فـان لم يكن اخطأ هيرودوتس ، وهو معاصر تقريباً لتلك الحوادث ، في اسم تترامنيستوس ، فلا يبقى لنا لتعيين زمن حكم هذه الأسرة الا عصران هما : النصف الثاني من القرن الخـامس واوائل الرابع ، او النصف الثاني من القرن السادس .

بيد ان هناك بعض العقبات تعترض وضع هذه الاسرة في القرن الخامس . اولاها خلوّ هـذه الآثار من ايّ تأثير يوناني ، على رغم الاتصال الوثيق الذي كان ، تلك المدة ، بين فنيقية وبلاد اليونان . وثانيتها انه وجـد في صيدا نواويس مصنوعة اغطيتها على شكل بشري ترقى الى القرن الخامس متأثرة كثيرًا بالفن اليوناني .

وهذه النواويس تؤلف القسم الاكبر من مجموعة قورد المعروضة الان في المتحف الجديد . ولذلك فقد تكون اسرة اشمونعزر ، على الاغلب ، من اواخر القرن السادس ومطلع القرن الخامس ق. م.

امثلة من الرؤوس المنحوتة على النواريس البشرية الشكل في مجموعة « فورد »

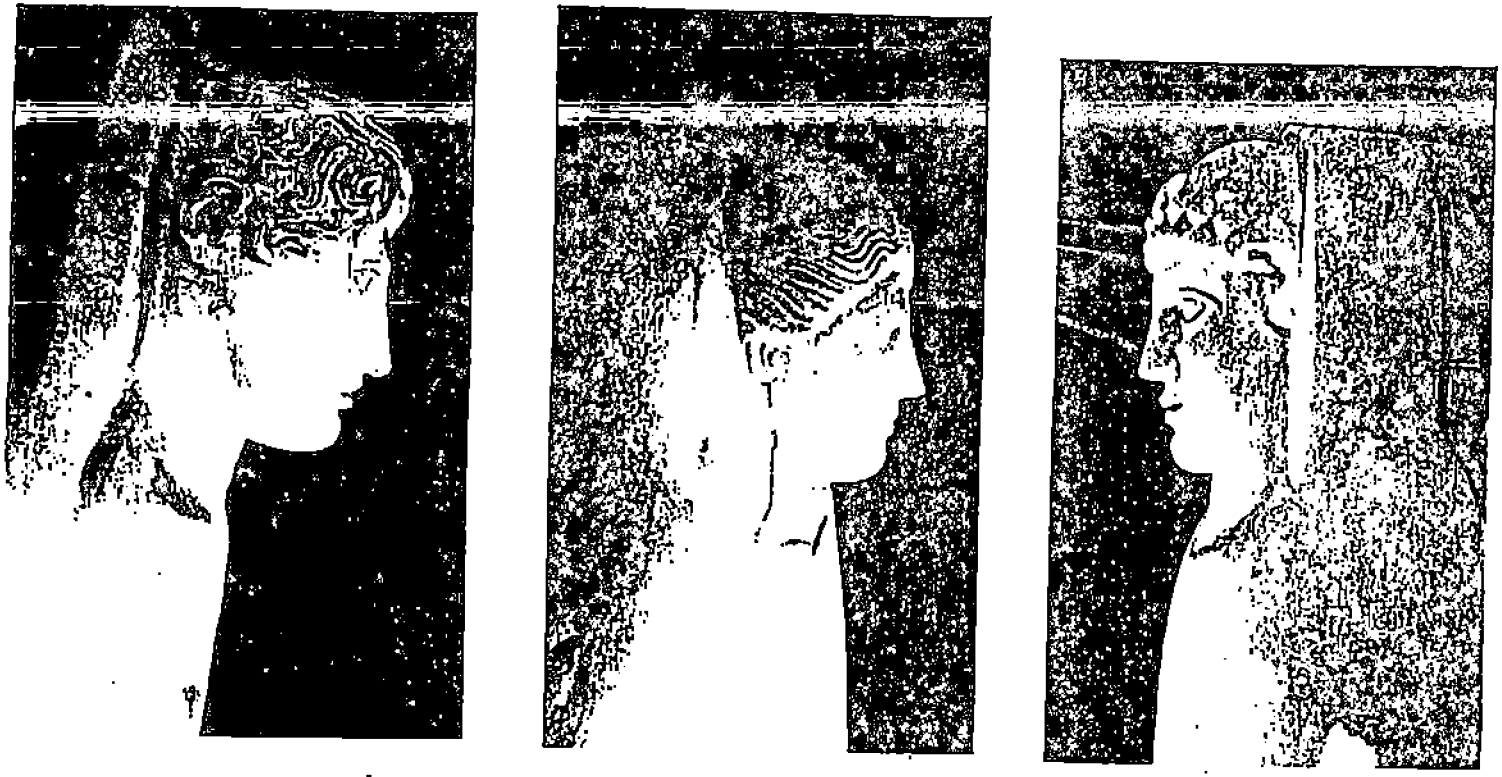

امثلة من الرؤوس المنحوتة على النواويس البشرية الشكل في مجموعة « فورد »